سدرة وادى السيل

قصص

مسعد أبو فجر

سدرة وادى السيل
قصص : مسعد أبو فجر
الغلاف : الفنان هانى الأشقر
الناشر : سما للنشر والتوزيع
المدير المسؤول : على عفيفى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة للناشر



٢٩ شارع الرشيدى-متفرع من القصر العينى - القاهرة
تلفاكس : ٣٦٥٩٢٩٣
Email : afifi@netscape.net

إلى والدى ..

ذلك البدوى القديس والمثقف ..

الذى يجلس تحت شجرة زيتون

فى صحراء سيناء

كأنه نبى ينتظر الوحى

م . أبو فجر

« تعلموا الأنساب، ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سُئل الرجل عن أهله قال : إنه من قرية كذا ..»

عمر بن الخطاب

رائحة الإثل

صاحت امرأة الشيخ وهى تشكم الجمل :

- ايخ يا جمل البسومى(*).

كانت العبارة مؤذية واستفزازية، وأثارت حفيظة البسوم الواقفين على حافة البئر يملأون جرارهم.

كان سالم مثل معظم أقرانه من بدو سيناء الذين يقتاتون على ما تدره تجارتهم، يعبرون هذه البرية، يحملون أشيائهم البدوية على ظهور جمالهم، يولون وجوههم شطر سوق العقبة، يبيعونها، يبتاعون بثمنها بضاعة أخرى، يقفلون عائدين إلى بلادهم فى سيناء، يبيعونها فى أسواقها.

بعد قيام دولة إسرائيل تقاسمت الدول هذه الصحراء، وعبثت الجيوش بحريتها واتساعها، ولم يعد المرور فيها سهلاً بدون بطاقات هوية، وأوراق أخرى لا يعتنى بها البدو. حين أخبر سالم بهذه الحقيقة ..تمتم .. وبصق على الأرض.. فعرف القوم أن سالم لن يأبه .

---

* البسوم :إحدى عائلات قبيلة الرميلات التى تقطن صحراء رفح سيناء .

بهذه الدول ولا بجيوشها، وسيستمر فى تجارته رغم خطر الموت الذى يحيق بكل من يقرب هذه الحدود.

فى صبيحة ذلك اليوم باع سالم بضاعته فى سوق العقبة، اشترى بضاعة أخرى من بينها عقداً لتتزين به ابنته «فرحة» يوم العيد، قفل راجعًا، تغلغل فى صحراء النقب، أحس بالجمل من تحته يتململ، ثمة خطر يحسه الجمل، أطرق سالم بأذنيه، أزيز طائرة هليوكبتر يقترب، الطائرة تجدُّ فى أثره.

لف الرسن حول رقبة الجمل، أطلقه، التصق بشجرة الإثل كأنه ساق من سيقانها، صوت الطائرة يقترب، يشق السماء، تحوم الطائرة فوق شجرة الإثل، تقترب منها، سالم يزداد التصاقًا بها، قلقه على الجمل أكثر من قلقه على نفسه، كانت دقات قلبه مضبوطة مع دقات قلب الجمل، أنفاس الجمل مضبوطة مع أنفاسه، شحمة أذنه ترتجف إن تململ الجمل تحت وطأة حمل أو تحت وطأة خطر.

الهليوكبتر تمشط الأرض، تأخذها ذهابًا وإيابًا بحثًا عن الجمل وعن صاحبه، الجَمل اختفى، ابتلعته الصحراء فى بطن كثيب من كثبانها.

أحس سالم بحركة تحت قدمه.. نظر بعين واحدة إلى الأرض العين الأخرى معلقة نحو السماء الشيطان يئز يكاد يجتاح شجرة الإثل. يجتثها. كان ثعبان يطل برأسه من الجحر تحت قدمه.

وضع كعب رجله فوق رأس الثعبان. احتد السجال بينهما.. الثعبان يريد أن يخرج جسمه من الجحر.. يلفه على ساق سالم.. يمنع الدم عن كعب رجله.. يفقده السيطرة عليها. يسحب رأسه من تحتها. سالم يضغط ليحول بينه وبين إخراج جسمه من الجحر.. الهليكوبتر تئز.. تقترب أين اختفى هذا البدوى بحق السماء.

ترنح الثعبان ضغط كعب رجل سالم المتواصل أفقده السيطرة على نفسه. بحركة كأنها البرق.. رفع سالم رجله ضغطها مرة واحدة على رأسه.. ففارق الثعبان الحياة. عين سالم لاتزال معلقة فى السماء.. تخلص من شيطان تحت قدمه.. ظل الشيطان الأكبر فوق رأسه يصول ويجول.. جاداً فى البحث عنه قاربت الشمس على المغيب أدركت الطائرة أن الأرض انشقت وابتلعت هذا البدوىَ وجمله.. وأن لا جدوى من

البحث عنهما توارى صوتها، أطرق سالم هنيهة، الصحراء تعاود هدوئها الأزلى، صقر خرج من مكمنه وصفير جناحيه يجتاح السكون.. لم يبرح سالم مكانه سمع همهمة الجمل.. خروج هذا الجمل ـ الأصهب كما يجب أن يناديه ـ وإصداره لهذه الهمهمة يعنى أن الخطر قد زال انتظر حتى غابت الشمس تحسس العقد وجده كما خبأه.

امتطى ظهر الجمل.. (لكزه) . أخذ طريقه إلى برية سيناء أو سين كما ينطقها البدو، عله يصل قبل طلوع الشمس. ربط الأصهب، وتمدد تحت شجرة التين، قبل أن يغفو كان صوت رفيقه "لويفى" يشق سكون صباح الصحراء:

"يا سالم ولد العيد ع قوز العيد (**) ولد العيد ع قوز العيد يا سالم"

قفز.. التفت صوب العيد.. إنها الحكومة.

كانت الحكومة أقرب إلى الأصهب منه.. والجمل يهدر هديراً" كأن القيامة قد قامت.."

إيه ياسالم عليك أن تفر بنفسك الآن، الجمل المعقل واقع فى أيديهم لا محالة لو لم أعقل هذا الأصهب لما فكر الشيطان فى الاقتراب منه.. كيف بهؤلاء الذين

** قوز العيد : القوز هوالمكان المرتفع .. وقوز العيد مسمى لمكان مرتفع يجتمع فيه بنات وأبناء البدو يوم العيد، البنات يغنين والأولاد يتسابقون على خيولهم وإبلهم.

جيشت منهم الحكومة جيشاً ليس لأنهم فرسان بل لأنهم ممعنون فى التدجين، توارثوا الطاعة عن آبائهم عن أجداد أجدادهم، أأمتشق بندقيتى.. أحصدهم عن آخرهم، اصبر يا سالم اصبر.. الجمل سيكون عند الحكومة. سأذهب للشيخ ليأتى به مقابل رشوة أدفعها لرئيس النقطة.. أما البضاعة والمال فتعوض. لكنه العقد ماذا سأقول لفرحة حيت تأتيتى تسألنى عن عقد العيد. اصبر يا سالم.

هكذا ناداه الصوت من داخله.

أخذت العساكر الجمل والبضاعة.. البضاعة تقاسموها بينهم، الجمل لم تأخذه الحكومة إلى النقطة، اكتفت به رهينة عند الشيخ إلى أن يعود سالم صاغراً.. يحاكم على فعلته.

طال مكوث الجمل فى بيت الشيخ وسئمت امرأة الشيخ مئونة الأصهب.

قررت أن ترد به البئر، هناك يجتمع كل البدو يسقون أغنامهم وإبلهم ويملأون جرارهم ثم يقفلون عائدين إلى مضاربهم.

وزيادة فى استفزاز سالم وقومه.. كانت امرأة

الشيخ تؤذى الأصهب، وتشكمه وهى تصيح:

"ااايخ خ خ.. يا جمل البسومى"

اشتاط قوم سالم غضباً كادوا أن ينزعوه من يدها عنوة، اسكتهم سالم بإشارة من طرف عينه.. لو فعلوها سيجن جنون الصحراء ولن تنطفئ نيران الحرب بينهم وبين قوم الشيخ. أما سالم فقد بيت نية أخرى.

انتظر حتى أغلظ الليل فى ظلمته استل سيفه ولى صوب بيت الشيخ. كان نباح كلب الشيخ مزعجاً.. وفاضحاً.. أخرج السيف من غمده، وبضربة واحدة تدحرج رأس الكلب بعيداً عن جسده الذى لم يفارق مكانه.

أطرق بأذنيه سمع همهمة الأصهب.. الأصهب سمع دقات قلب صاحبه.. أصدر هذه الهمهمة يخبره عن مكانه.

اقترب من الجمل، امرأة الشيخ تغط نائمة.. الأصهب صامت بعين واحدة ينظر إلى صاحبه والأخرى ينظر بها إلى امرأة الشيخ النائمة.. ورسن الجمل ملفوف حول ساعدها.

بسخ سالم الرسن.. همس فى أذن الجمل امتطى ظهره مولياً إلى السوق، حمله بضاعة، توجه صوب سوق العقبة ليشترى لـ "فرحة" عقداً لتتزين به يوم العيد.

"إنهم أكثر شعوب العالم فقراً.. ولكنهم أكثرهم كرماً وسخاءً.. يسافرون وهم جائعون من أجل أن يتركوا فى بيوتهم شيئاً يقدمونه للزائر الغريب.."

ترحال: سيناء/ نيكوس كازانتزاكى

وريقات التين
خوذات العسكر!!!

كانت إشراقة شمس هذا الصباح مختلفة عن إشراقات شمس الصحراء فى الأيام العادية أشرقت الشمس، أتت معها بالخوف.. بالرعب.. رعب وخوف لم تحسه الصحراء من قبل. كثير هو القلق الذى يعيشه ناس الصحراء.. القلق أعطى نفوسهم صبغة خاصة جعلتهم أكثر صبراً، وأكثر حساسية جعل أرواحهم أكثر قدرة على استقراء القادم من الأيام والأحداث.

امتلأت السماء بالدخان.. كان أزيز الطائرات المغيرة مرعباً، تقاطر البدو صوب «البرص»، هذه التلال الرملية التى تفصل الصحراء عن البحر، علمتهم كثرة الحروب التى عايشتها بلادهم إن هذه التلال لها قدرة عالية على امتصاص الحمم التى ترميها الطائرات والمصفحات المغيرة. هذه الرمال تبتلع القنابل فى أحشائها فلا تخرج منها أبداً تمتصها فتمنعها من الانفجار، صعب اجتياز هذه التلال ومجرد التفكير فى دخولها عذاب.

وصل سليمان بأبنائه وامرأته وإبله. أسكنهم فى بطن تل من هذه التلال إلى أن تزول الغمة كما قال لامرأته التى قالت: إن اليهود لن تطول أيامهم.. سيخرجون من الصحراء قبل شهور مثلما خرجوا منها سنة ٥٦، قفل راجعاً ليأتيهم بالماء، كانت راحلتهم لم تقو على حمله.. تركوه فى خيمتهم، سار بمحاذاة شجرة التين وإذ بصوت ينبعث منها همساً:
ـ شيخ العرب.. شيخ العرب.. شيخ العرب، أصاخ السمع، شيخ العرب. سار بحذر إلى حيث انبعاث الهمس.

كانوا خمسة من الجنود يرتدون ملابسهم العسكرية يحملون بنادقهم، لم يكن هذا مايثير انتباه البدوى، فى ذلك اليوم صار منظر الموت والجوع والعطش عادياً .. آلاف الجنود الحفاة العراة العطشى .. يسيرون فى البرية بلا هدى، الدبابات المغيرة تسحقهم أحياءً تحت جنازيرها، من يفلت من بين أنيابها تحصده طلقات الرصاص المنبعث من الجيبات العسكرية التى تسير وراء الدبابات، الحمم تقذفها الغيوم المارة فى السماء.. صار الموت قاعدة والحياة

استثناء، الكل يردد نفسى نفسى،الذى أثار البدوى وأخذ بلبه فى هؤلاء الجنود قدرتهم على فهم رموز الصحراء وفك طلاسمها.. وفهمها. هذا الفهم جعلهم أحياءً يرزقون حتى هذه اللحظة، حفر الجنود بأرجلهم وبأقدامهم بين عروق شجرة التين الرطبة غرسوا أجسامهم.. مما قلل من حدة العطش وريقات التين التى غطوا بها خوذاتهم جعلت رؤيتهم عسيرة المنال بين أغصان شجرة التين.

نسى البدوى الغنم.. نسى امرأته.. نسى أطفاله.. نسى نفسه أمام مفاجأة المشهد الذى لم ير أحداً من بين أرتال الجنود الذين رآهم طوال اليوم يسيرون بغير هدى فى عرض البرية فى مثله، تذكر حكمة الصحراء التى تقول: "أن الحياة جائزة لايستحقها إلا من عرف قدرها". همس إليه أحدهم:

ــ شيخ العرب: "نحن نريد أن تدلنا على الطريق لنرحل.. ونريد ماء ـ إن أمكنك ـ لنشرب".

همس إليهم: "لا تبرحوا هذا المكان حتى أعود إليكم"

كانت الخيمة بعيدة عن شجرة التين التى يختبئ فى

قلبها العسكر.. هرول حتى وصل الخيمة رمق البرميل الذى تركه ملآن بالماء عن آخره. كان منظر البرميل من بعيد مفجعاً.. البرميل منتصب، الماء المنسكب منه قد ترك بللاً على حوافه والبرميل ـ كأنه المنخل ـ مخرم من أوله إلى آخره بطلقات الرصاص.

يالله ماذا سيقول لهؤلاء للذين شعر نحوهم بألفة خاصة.. لا لأنهم جنود.. الناس اليوم عيونهم شاخصة إلى السماء، الطائرات تحوم، تئز، تقذف حمم حقدها على العزل من البدو.. وعلى العسكر المنسحبين.. من له فى هذا اليوم أن يذكر غير نفسه.

اقترب من البرميل ويده على قلبه. تحسسه كان شبر واحد فى قعر البرميل.. لم تقربه طلقات الرصاص احتفظ هذا الشبر بجرعات من الماء بحث عن الجرة تكسرت.. طالتها رصاصة من سيل الرصاص الذى يصبه الجنود المغيرين وهم يعتلون ظهر الدبابات يمشطون الأرض ومن عليها بطلقات نيرانهم التى لم تترك أخضر ولا يابس إلا وأمطروه بسيل بنادقهم بحثاً عن جندى قد يكون مختبئاً.

هل يحمل البرميل إليهم، إن حمل البرميل عبء لا يقدر عليه فى مثل هذا اليوم، سيحد من قدرته على الاختباء وعلى المناورة..أيغط عمامته فى الماء ثم يجرى بها إليهم ليمصونها، سيبلون ريقهم بلا شك لكنها ستجف تحت وهج شمس هذا القيظ قبل أن يصلهم. نقب فى الخيمة عن شئ يحمل فيه الماء وجد الأبريق الفخارى، السماء أمطرت هذا الأبريق، الله يشاركه هذه المحنة التى وجد نفسه فيها.

ملأ الأبريق بالماء المتبقى فى قعر البرميل.. هرول إلى حيث يختبئ العسكر فى قعر شجرة التين.. يجرى يمسح عرقه بطرف ثوبه.. يسمع أصوات الطائرات المغيرة ينام على بطنه فى القدود التى قدتها القنابل المطرة من السماء والأرض تشتعل ناراً تحت بطنه فى هجير الرمضاء.

حين وصل شجرة التين سقط على الأرض. أمسك جندى من العسكر بالأبريق"، همس إلى البدوى: "هل تركت ماءً لأبنائك؟"، اعتدل البدوى وضبط أنفاسه. وصاح فى الجندى: اشربَ واسق رفاقك.

ناول الجندى الإبريق للجندى الجـالس بجـواره.. تناول الجنود الشرب.. واحداً تلو الآخر التفت إليـه الجندى : "نريد أن نذهب .. "، تفحصه البدوى ملياً قبل أن يقول: "ليس الآن ثم أردف: بمحـاذاتنا الآن طريق مسـفلت. يمتد من آخر الصحـراء إلى آخر الصحراء.. أشار بيده إلى شجرات الإثل.. إنه هناك بعد بعد هاتيك الإثلات مباشرة.. عليكم الانتظار حتى مـا بعـد الغروب.. حـتى تتـمكنوا من رؤية أضـواء سـيارات العدو قبل أن تراكم، اختـبـأوا حين ترون أضـواء السـيـارات واتجـهـوا صـوب شـجـيـرات الإثل..اقبعوا تحتها.. سيتكشف لكم الاسفلت، انظروا يميناً ويساراً حين تنعدم السيارات اعبروا الطريق سيروا بمحاذاته ليلاً.. اختبأوا فى النهار.. ستصلون بعون الله سالمين.

عاد إلى خيمته لملم أشياءه انتظر حتى غابت الشمس اتجه إلى «البرص" حيث ترك أبناءه. كان المكان خالياً. من غير بقايا أشلاء إنها قنبلة وقعت على أبنائه وامرأته وإبله دفنتهم فى الرمل أحيـاء..

قبض الصهيل

كان الصبى يلاعب الحصى أمام المضارب يرص ثلاث حصوات ويرميهن بالرابعة. أو يلاحق الطيور التى تمخر عباب السماء بالغناء:

"يا طيور الخميس صف صف"

والطيور فى ترحالها الأبدى من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال تقابل الغناء بالتحية فتفرد أجنحتها وتتراص صفاً واحدا فى السماء.

وحين يعود متعباً فى المساء ليسكن فى حضن الأم تقص له من حكايات الأسلاف وأساطير الجن قبل أن يستكين ويغرق فى نوم عميق الأم التى تخبئ عنه حقيقة أن الأعمام يتنازعون حول أيهم يتزوجها بحجة أن كل منهم أكثر حرصاً على أرملة أخيه ووليدها، ولم يكن خصامهم فى الحقيقة يتعدى حدود جمالها الذى كان أخاذاً وفاتناً، أسر قلب الأب الذى لم يستمتع به كثيراً إذ سرعان ما اجتاحه اليهود حينما اجتاحوا

صحراء سيناء ومعها جسده. أما الأم فقد صمت أذانها، وحلقت برأس أبيهابألا تعيش حياتها لغير إبنها، كانت تضعه فى حضنها لا كما تضع كل النساء أبناءهن، وإنما كانت تنصب قدميه على حزامها الأحمر، حتى يكون وجهه قبالة وجهها وتغنى للوجه الذى يبدو أنه أجمل من وجوه أطفال الصحراء المتعبة والمرهقة والناضجة قبل الأوان تحت قهر الجدب الذى صبته السماء على الصحراء فى تلك السنين، وقهر الاحتلال الذى حرمهم حتى من بداوتهم، هذه البداوة التى كان الأسلاف يتفاخرون بها وينشدون لها الأناشيد فى سمارهم، وينظمون فيها الأشعار فى مجالسهم حين يتكئون غارسين سيوفهم أمامهم فى الرمل وخيولهم تملأ فضاء الصحراء صهيلاً وحمحمة.

أما الجد الذى لم يكن يفعل شيئاً لأبنائه الذين يتقاتلون على حافة جمال الأم فقد أقعدته السنين وأرهقه اليهود حتى لم يكن ليرى غير ممسك بمسبحته التى صنعها من نوى النخيل.. ويردد "تعاويذ الورد" وحين يأخذ الولد فى حضنه ويداعب وجنتيه يستفزه الصبى متسائلاً أريد أن أعرف متى تعود لقبيلتنا

أرضها التى أخذها اليهود وتعود لك مشيخة القبيلة التى أعطوها "لباد" معتوه قبيلتنا، وأقسم الحاكم العسكرى يومها ليجعلن كل قبيلة الرميلات تقول للباد هذا المعتوه يا عم!! لباد هذا الذى كان يستشيرك حتى كيف يضع الوثر على الناقة، ناقته التى اشتريتها له من حر مالك، أتذكر أغنامك التى بعتها فى سوق بئر سبع لتدفع ثمنها، أمى أخبرتنى بذلك!!

فيرمقه الجد بنظرة من طرف عينه قبل أن يختم «الورد» ويلملم مسبحته ثم يدسها فى جيب جلبابه الأبيض، يمرر أصابعه من لحية طويلة ناصعة البياض وترتسم على ثغره ابتسامة حانية، يربت على كتفيه قبل أن يجيبه بحكمة شكلت حياة الصبى وجعلته دائم النزوع نحو التفكير المجرد حين يقول: "فى المدرسة سيعلمونك.."

كان الجار سلمان أبو خلف عصر كل يوم يتكئ تحت شجرة لوز يذاكر فى كتاب كبير الحجم..

ـ ما هذا الكتاب الذى تذاكر فيه يا أستاذ سلمان!! تساءل.

(كان سلمان طالباً أكبر صبيان القبيلة سناً وأكثرهم تقدماً فى سنوات الدراسة، وفى أجازات الصيف كان يجمع أطفال الصحراء تحت عريشة من

جريد النخل يعلمهم القراءة والحساب والإملاء.. وكان الصبى أكثرهم تحصيلاً وربما شقاوة ولذا فقد كان ذا حظوة خاصة لدى سلمان، وألا لنهره مثلما كان يفعل مع الأطفال الآخرين حين يقتربون من شجرة اللوز التى يقبع تحتها..)

إنه كتاب فى التاريخ، حين تكبر وتصير فى مثل سنى سيدرسونه لك فى المدرسة، ظل الصبى يرتقى سنوات الدراسة دونًا عن أطفال الصحراء الذين يكتفون عادة بمعرفة القراءة والكتابة لا ليتعلم الكيمياء والفيزياء والرياضيات بل ليعرف متى تعود للقبيلة أرضها.. وليتعلم التاريخ، كان الحلم غائراً وبعيداً فى رحم الزمان والولد مصمم عليه مخبئ تصميمه فى ثنايا صمت الصحراء وصبرها الأبدى يردد "لابد أن أعرف..!!"

كانت الأم فجر كل يوم تجتاز الطريق المسفلت الذى يمتد من آخر الصحراء حتى آخر الصحراء، والذى حده اليهود حداً بين القبيلة وأرضها، عليهم عدم تخطيه من غير تصريح من الحاكم العسكرى، هذا التصريح الذى لا يأتى أبداً دون تنازلات لايرضى بها البدو.

كانت تعبر ذلك الحد فجر كل يوم وتعود قبل أن يرفع الليل أسداله حتى لاتراها دورية اليهود تحمل

على رأسها صفيحة ملأى بعناقيد العنب أو بحبات التين أو بحزمة من الحطب تنتظر حتى تبزغ الشمس تعرج بها إلى السوق تبيعها وتشترى للصبى دفاتر وأقلام وحذاء رياضياً جديداً كى يبدو جميلاً أمام معلمته "عائشة أبو ستة" حفيدة أبو ستة شيخ مشايخ البدو فى فلسطين، وحتى لايبدو حفيد شيخ البدو فى سيناء أمامها مرهقاً، كانت المعلمة تأتيه بالشيكولاتة فى حقيبتها من خان يونس ولا تنادى اسمه مجرداً من لقب الجد الأثير، مما يخفف عنه قهر اليتم وقهر اليهود الذين اغتالوا اسم جده..

ولكن الأم فى ذلك الصباح لم تعد لا بالدفاتر ولا بالأقلام ولا بالمصروف اليومى.. قبضت علها دورية الجيش متلبسة بحمل حزمة حطب من الأرض التى حرم اليهود على البدو دخولها، واقتادوها باكية إلى مقر الحاكم العسكرى الذى رفض الإفراج عنها من غير ضمان الشيخ على ألا تعود..

ذهب الصبى يبكى للشيخ "لباد" الذى نظر إليه بطرف عينه نظرة خبيثة وماكرة قائلاً:

"ابعث لى جدك.."

المسك والظبية

سـأل الجدة المجربة التى شربت الحكمة من لبن النوق يوم أن كانت صبية ترعى الإبل فى البرية.

- أى الهدايا تفضلها أكثر من غيرها أنثى الصحراء؟

- قالت الجدة بعد أن لضمت الخيط فى الإبرة التى تحيك بها ثوب عرس الحفيدة التى اقترب موعد زفافها:

"العطور ألا تدرى أن الظباء تخبئ المسك فى جوفها.. أم أنستك المدينة أن الظبية هى الأنثى الأولى فى الصحراء!! "

وقف أمام بائع تسكن فوق أنفه نظارة بيضاء تخبئ عاهة فاجرة فى واحدة من عينيه.. والعاهة تنبئ عن باع طويل فى كيمياء العطور.."

سأله بدهاء هو من متطلبات كبرياء الصحراء:

أراك خبيراً فى عالم العطور، فمنذ أن دخلت المدينة وأنا أراك تنتصب خلف هذا البنك تقلب زجاجات بين

أصابعك ترصها على أرفف واسعة لا تحوى غير الروائح الطيبة.. وابنة رئيسى نجحت فى الامتحان وأريد أن أقدم لها واحداً من أحسن العطور وأغلاها..

تناول الرجل من على الرف زجاجة يعدد أوصافها، والبدوى عجلاً ومستعجلاً - يطالبه بلفها.. تردد البائع كأنه تذكر شيئاً قد نسيه، وقد أدرك مكمن ضعف البدوى.. وصاح:

- عندى نوع فاخر من العطور يأتينى خصيصاً من المطار يقوم بتهريبه الطيارون والمضيفات.

- مضيفات وطيارون كلام لا أدعى فهمه ولا أنكر كبر محتواه.. !! تمتم..

حين ناولها بنت العم التى لم تسطع فك الطلاسم والأبجديات الموسومة بها الزجاجة فطلبت منه حلها، قرأ المكتوب وجدها عطراً مخصصاً للرجال تذكر، التراب العالق بالغلاف والبائع يمسحه بفرشاة كانت فى يده، كان ينبئ على أنه واحداً من أردأ أنواع العطور..

دسها فى ورقة لامعة ودفعها للبدوى الذى دفع ثمنها متعجلاً..

طاقية الغجرى

حين تنتصب خيام الغجر خلف مضارب القبيلة فى موسم الحصاد فى الليالى المقمرة.. ترقص الغجريات ويضرب الأولاد بالدفوف ويقوم الغجرى وامرأته بتمثيل دور كلب ينادى أنثاه للمضاجعة.. فيقهقه شباب القبيلة ويرتمون على ظهورهم يخرج بحمدون يقترب من البنات الغجريات يدس يده فى صدر أجملهن تصرخ الصبية وتتثنى بدلال ويطقطق قرطها..

وحين ينتهى موسم الحصاد ويرحل الغجر، يرحل معهم بحمدون وصديقاه.. فى الصباح تنداح الغجريات فى الصحراء، ويبقى بحمدون مع رجال الغجر يدخنون التنباك ويلعبون السيجة وحين ينامون ينام بحمدون وصديقاه بجوار خيمة الغجرية.

فى تلك الليلة التى خرج فيها الغجرى وتأخر فى الإياب انسل بحمدون من فراشه وأنمل تحت غطاء الغجرية تشمم أنفاسها قبلها حضنته.. وانسل خارجاً.

حين عاد الغجرى وضع يده على صدر امرأته.
صاحت: أتريدنى ثانية؟
انسحب الغجرى من تحت الغطاء.. منزعجا، توجه صوب الضيوف الثلاثة من سيفعلها غير لعين منهم!؟ تمتم..

كانوا نائمين تحسس أولهم وجده نائماً تحسس الثانى وجده نائماً، وضع يده على صدر بحمدون كان يدعى النوم وصدره لايزال ساخناً، خلع البدوى طاقيته ووضعها بجانب بحمدون..

وانسحب عائداً أما بحمدون تناول الطاقية ووضعها عند رأس رفيقه.

عاد الغجرى يحمل عصاه تحسس الطاقية، تناول من هى بجانب رأسه بالعصى ، استيقظ الرجل مفزوعاً وأخذ يصرخ

تلتلم الغجرعلى الزعيق
ـ أفعلها؟ تساءلوا
ـ صرخ الغجرى وهو لايزال يضرب "نعم فعلها!!"

أمي تعد أصابعي العشرين عن بعد
وتمشطني بخصلة من شعرها الذهبي
تقول لي:
«تزوج أي امرأة من الغرباء
هي أجمل من بنات الحي
لكن إياك أن تصدق امرأة سواي..»
محمود درويش

رائحة الإثل

إطلالة ثانية

أستحث الخطى لأتخلص من هذا الزحام المخلص فى غيه. وحيداً من غير عصاى التى ورثتها عن جدى، كان جدى مصمم على العيش رغم عنفوان الفقر، ورغم غباء الحدو السياسية فقد كان عروبياً دون أن يدرى يتخطى حدود ثلاث كيانات / دول عربية على راحلته حاملاً أشياء بدوية بسيطة من سيناء ليعبر بها الحدود المصرية الفلسطينية والحدود الفلسطينية الأردنية يبيعها فى سوق العقبة ليشترى بها لأمى عقداً تتزين به يوم العيد.

وأمى حين تقسم تقول:

ـ أنها لن تفعل كذا حتى لو أخرجوا أباها من قبره..

حينها استفزها متسائلاً وماذا سيضيف أباك إلى صخب هذا العالم؟ فتنفجر أمى والدمع يتطاير من عينيها زهواً تحكى عن أباها ذلك البدوى فارع الطول

جميل الوجه والذى كانت تسمع صيته بأذنها، كان يعيش فى حالة فرار دائم من الحكومة وكان مسجل تحت بند: "مهرب خطر" فى سجلاتها (...)

كانت طائرة اليهود تلوك الصحراء بحثاً عنه وهو يلتصق بساق شجرة إثل فى صحراء بئر السبع عائداً من سوق العقبة. دائماً أمى تحكى عن أباها وكأنه قديس صمم على العيش رغم أنف الفقر.

أما جدى الذى كان مزواجاً فقد تزوج من ست نساء وأنجب أمى وولدين، تصمم أمى حين تحكى عن أباها بأنه كان يتزوج بحثاً عن الذرية، أما أنا فأعلم بأن بنات الصحراء كلهن يحببن جدى لفرط طوله ووسامته وفروسيته.

وكلما نسجت خيوطها حولى امرأة كى تزوجنى بنتها تذكرت أن جدى هو الذى اختار أبى زوجاً لابنته التى هى أمى، التى قذفتنى إلى هذا العالم، وحين أكون فى الصحراء، دائماً أفاخر بهذه الحقيقة التى تذكرتها حين طاردتنى أول امرأة حينها تصرفت بنبل لا يتناسب مع غير الصحراء، وادعيت الحكمة

مستعيراً العبارة الشهيرة:

"الزواج نظام اجتماعى متخلف"

وحين ازدادت مطاردتها لى.. لم افتقد ذلك النبل الذى لايفهمه غير أهل الصحراء، وقلت لها بأننى سأخطب ـ عرفت فى المدينة أن الزواج تسبقه مرحلة خطوبة – ابنة عمى التى تعيش فى الصحراء، ولم تنفك مطاردتها لى حتى لبست دبلة فى يدى اليمنى. ابتلعت الطعم كأنه لا يتم زواج بغير هذه الدائرة الفضية التى يضعونها فى أصابعهم، ولكن إصبعى أصيب بحساسية على أثر هذه الدائرة الفضية، فقذفت بالدبلة إلى الجحيم مقدراً لهذا الإصبع البدوى عدم قدرته على تلبس هذا الطقس المتخلف.

وحين جاءت الأخرى تنصب شباكها حولى كنت قد اكتسبت خبرة، تصرفت مثل شيخ قبيلة، وادعيت أمامها، ومنذ اللحظة الأولى، بأننى سأتزوج قريبتى من الصحراء ولكن اللعينة بحثت عن الدبلة، وحين لم تجدها عرفت بأننى أتهرب منها، فسألتنى عن اسمها ومتلعثماً أجبتها بأن اسمها "بيسان" وهو اسم له

نكهة خاصة على لسانى، أغلب الظن أننى سأسمى ابنتى كذلك. ولكنها لم تتركنى وأكملت أنت تحبها؟؟
أجبتها وكبرياء الصحراء تملؤنى أيوه بحبها!!

ولكن اللعينة وقريبها الألعن الذى كان يجلس بجانبها ويعلم مقصدها، بل وينافسها بأخته أشبعانى تقزيماً وسخرية من بنات البدو، مستعينين على بكل ما شاهداه فى ذلك المسلسل التليفزيونى.

حينها لعنت (..) وتمنيت لو ابتلعتنى الصحراء فلا أخرج منها أبداً.

«إن الوصايا لا تعترف بنسل لم تنجبه أنثى
الصحراء..»
خريف الدرويش/ إبراهيم الكوني

الصحراء..
نهاية أخرى

كان الشيخ جالساً بين غنيماته حين هل "ملفى" أصعر أبناءه الذى بادره قائلاً:

- يا يباه عمتى تقول لك جا النا ضيف..

- عمتك تقول جا النا الضيف يا ملفى..

- آه والله يايباه وعمتى تقول اسمه "براق" يا يباه.

عاد الشيخ إلى بيت زوجته الجديدة "باشا".. قرر أن تكون الليلة فرحة القبيلة والقبائل المجاورة، نحرت الذبائح، ضجت الصحراء بفرقعة الآليات امتلأ الفضاء برائحة البارود، الذى انطلق من بندقية الشيخ وبنادق ضيوفه، ولكن خلف يكر صفو الفرح، كان يجلس كئيباً يمرر أصابعه بين شعيرات ذقنه بين الفينة والفينة، صاح الشيخ:

– خلف.. علامك ما انت على بعضك؟

– عقبين أخرفك يايباه.

ـ بتقول عقبين تخرفنى إيش اللى صار يا ولد..
ـ قلت عقبين أخرفك يا شيخ.

انفض السامر.. عادت المزغردات يجترن لحظات السعادة التى عشنها فى فرح الشيخ بمولوده الجديد.

أقبل خلف على الشيخ.. قال قبل أن يبادره بالسلام:
ـ تدرى أخوى مرعى إيش قال..!!
ـ أيش قال يا ولد ليش ما شفناه الليلة جويفل المغنى صاحبه كان فى السامر ظل يصول ويجول ولا واحد رد عليه القول.
ـ إيه يا بوى مـــا تدرى انت حلف براس جـــده براق ليتزوج من فلاحة ولما تجيب ولد يسميه غانم. على اسمك يا يباه.. ويطلقها.

"مرعى ثار وزمجر حين عرف أن الشيخ سمى ابن الفلاحة براق على اسم جده الأكبر جد القبيلة ومؤسسها الذى نزح وحيداً من صحراء نجد ليستقر فى برية سيناء.. وشهدت الوحوش بفروسيته ونسور الجو على فرط كرمه..
ـ يقول أبوى تجّوز تسع حريم، وأنجب ستة وثلاثين ولداً غير البنات ما لقى واحد من بين الستة والثلاثين

يسميه على اسم جدنا غير ولد هالفلاحة والله غير يتزوج فلاحة قبل أسبوع من اليوم ويوم ما تجيب له ولد ليسميه غانم على اسمك يايباه.. ويطلقها..!!

لم يطل الكلام بين الشيخ وابنه فمرعى ليس من أؤلئك الذين يقولون ولا يفعلون، حين أنجبت الفلاحة الجديدة غانم جاء الشيخ يحاول أن يظهر الفرح على تقاطيع وجهه أقسم لها:

"أن مشيخة القبيلة لابنها من بعده.."

لكنها لن ترى ابنها شيخاً فقد طلقها مرعى ما إن وضعت غانماً.

".. أن اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى.."

قرآن كريم

سدرة وادى السيل

"السدرة".. إنها تلك الشجرة التى تنتصب مكابرة على حافة وادى السيل تتبارك بها الأمهات والجدات يعلقن بها الخرز الملون والخرق القديمة يوقدن بين ضلوعها الشموع وينثرن تحتها البخور استجلاباً لبركة ودرءاً لأخطار قد تحيق بالقبيلة فى مقبل الأيام.

ح م د حماد الرميلات ومناع المواسى ودهمان عودة الله "حمد وادى السيل" رمز كان الثلاثة يتوثبون فى ساعة محددة من يوم معروف من كل أسبوع يتسمعون لبرنامج يذاع عبر المذياع ثلاثة شهور داهمتهم كأنها السيل دون أن يسمعوا الراديو ينطق برمز لايعرف معناه فى هذه البرية غيرهم. كانت القلوب قد قلّبت فضاء التيه قبل أن ينطق المذيع بالإهداء:

«من الحاج عطا الله الحلو إلى "حمد وادى السيل" نحن بخير طمنونا عنكم»

جملة عابرة نطقها المذيع دون أن يأبه بها أحد غير "حماد الرميلات" الذى هلل دون أن يدرى أن الرفيقين فى نفس اللحظة يهللان كل فى المكان الذى ساقته الصدفة إليه.

وصل الثلاثة فى ميعادهم الذى يسكن بين أذانى المغرب والعشاء تحت سدرة وادى السيل انتظاراً لمرسال يحمل رسالة بإقدام أو بإحجام وكان الطلب فى كلمات قليلة:

"عليكم قتل واحد من جنود الاحتلال لإثارة البلبلة فى صفوفه"

ركبوا سيارتهم التى يقودها واحد منهم كانت القلوب تتوثب فرحة بالثأر والسكاكين تحك الجلود تحت الجلاليب. حين أشار لهم واحد من جنود الاحتلال تبادلوا النظرات.. همس دهمان" :

" ليس من عادتهم الركوب فى سيارات العرب"

أسكته "حماد" بإشارة من طرف عينه صمت فارجل قاربت منيته.

- "تخاناة سادوت" (1) صاح الجندى

أشار له السائق بالركوب فتح الجندى الباب ارتمى

داخل لسيارة استوى على المقعد وأطرق برأسه للوراء أغمض عينيه وغط فى نوم عميق. كانت الرقبة ممدودة على جسم ضخم تتدلى منه ساقين تحتضنان بندقية "عوزى".

كان العنق ممدوداً على الكرسى كأنه عنق شاة يهيأ للذبح ،وأشعة شمس الغروب تعانق زجاج السيارة فتنعكس حمراء مكثفة على السكاكين التى تقابلها تلمع والأيادى تقبلها استعداداً لقطع العنق الممدود.

(تعازم) الثلاثة على ذبحه والأيادى تتراجع أمام قداسة النوم.. النوم الذى تمتلئ به عينا الجندى المتعب ورئتاه تتنفسان الهواء بعمق.

كانوا قد أشرفوا علي "تخاناة سادوت" حين أعيدت السكاكين إلى أغمادها تحت الجلاليب. أوقف السائق السيارة عند المحطة، أيقظه وفتح له الباب ودعه رافضاً أن يأخذ منه الأجرة.

تلاقت العيون للحظات كانت الدهشة تغلف الوجوه السمراء.. استحث السيارة سائقها حماد الرميلات باحثاً من جديد عن فرحة الثأر.

---

(١) اسم أطلقه الاحتلال على محطة من محطات سيناء .

أوراق من صحف القبيلة

"نص"

ما على الاجواد عقب الاجهاد لايم (*)

مثل بدوي

البدو..

حين عرفت أن أديباً كبيراً بحجم عبدالرحمن منيف هو مواطن عربى بامتياز الأب من نجد والأم عراقية ولد وتلقى تعليمه حتى المرحلة الثانوية بالأردن، وبدأ تعليمه الجامعى فى بغداد، وأتمه فى القاهرة، وهو اليوم نزيل دمشق «بدون جنسية».

تذكرت أقربائى البدو الذين كانوا يقضون فصل الشتاء فى العقبة ويحصدون القمح فى موسم الحصاد فى أسدود بفلسطين وفى الصيف يصنعون من تين سيناء قطيناً فى صحراء رفح، وفى الخريف يعملون جمالين على جمالهم في مديرية الشرقية فى مصر. وهم اليوم يقبعون على حافة الحدود: "بدون جنسية".

ورأيت أننى دولة وأننى أعطيت جنسيتى لعبدالرحمن منيف وعينته وزيراً للثقافة والإعلام والتوجيه المعنوى والإرشاد القومي. ورئيساً للتليفزيون ولكل الجرائد والمجلات والدوريات والمطبوعات التى تصدرها جمهورية: "أنا" واعتبرته المواطن رقم واحد

فى جمهوريتى البدوية.

وجـمـعت كل أقـربائى البـدو سـواء أولئك الذين لايملكون هوية البـتـة أو أولئك البـدو الذين يملكون بطاقات هوية ولكن مكتـوب لهم فى خـانة الجنسـيـة "بدون"، وكونت منهم جيشاً وأعدت فتح الدنيا لأنشر الأعراف والتقاليدالبدوية / العربية من جديد مثلما فعل خالد بن الوليد .

***

"روس البوادى ثلاثة: (أبو..)

وأبو ستة وابن سعيد العزامى(١)"

- أبو ستة هجره اليهود من بئر السبع، وتشتت القبيلة بين الأردن ومصر وقطاع غزة.

- أبو (...) سكن حـفـرة غـرب الشـيـخ زويد بعـد أن اجتاح اليهود سيناء فى العام ٦٧م ولم يخرج منها أبداً، هكذا يردد الأحفاد الذين يردفون:

ولكنهـمـا، على كل، أحـسن حـالاً من ابن سـعـيـد العزامى الذى ظل: "لاهو فوق ولا هو تحت!!" فالقبيلة التى لم تلحق أن تغادر النقب حين اجتاحه اليهود عام

٤٨ اجتاحها شارون فى عام١٩٥٣ بالوحدة ١١ التى شكلها، وفى وضح النهار أخذ هو ورجاله يطلقون الرصاص فى كل اتجاه، لا فرق بين إنسان وحيوان، وبعد نهب كل ممتلكات البدو أشعل شارون النار فى بيوت الشَعر وطارد الفارين بهدف تصفيتهم نهائياً.. وحين اجتاح اليهود باقى صحارى العرب فى عام ٦٧ رفع اليهود عن باقيهم حظر التجوال ومنوا عليهم بإعطائهم جنسية إسرائيل.

أما أولئك الذين استطاعوا أن يرحلوا بعيداً عن وجه إسرائيل فقد ظلوا يعيشون على حافة الحدود بدون جنسية، لا اليهود يريدون إعطاء مزيد من العرب جنسيتهم، ولادولة عربية، ولاحتى سلطة فلسطين مستعدة لإعطائهم جنسية.

وحين وجدتنى «أنا» ولست دولة.. وجدتنى لازلت أردد: "روس البوادى ثلاثة..!!!.

---

(١) من الشعر البدوى .

الراية...

كنا قد اجتزنا طريق تحفه الأشجار من جانبيه كان الطريق واسعاً.. والعربات التى تمخره مسرعة تترك على غلاف الروح بقايا من ضجيجها على الجانب الأيمن من الطريق تمتد حديقة الحيوان.. من وراء الأسوار كانت القرود تتنطط تبحث عن حبة فستق قد يجود بها زائر يرميها من وراء القضبان.. والزرافات تمد رقابها الطويلة تحكها بعيدان الشجر.. على الجانب الآخر ثمة عشيقين يختلسان القبلات تحت أشجار حديقة الأورمان والأولاد يقزقزون اللب المحمص، ويفترشون الأعشاب الخضراء.

كنا خارجين من جامعة القاهرة كاد يبتلعنا كوبرى الجامعة قبل أن ألمح تلك الراية ترفرف من فوق بناية طويلة هى من أطول بنايات الميدان، ورغم أننى غالباً أتحاشى المرور من هذا المكان، وحين تضطرنى الظروف اجتازه مسرعاً، فمنظر المصفحات ووجوه الضباط والجنود المكفهرة يؤذينى وأحاول عدم النظر إلى تلك البناية لأتحاشى رؤية الراية التى تبدو لى كلما مرت نظيفة ولامعة وترفرف بشكل يذكرنى بحرية

قبيلتى التى استلبت قبل أن يجتاح اليهود سيناء فى حزيران يونيه بتسعة عشر عاماً، هى عمر دولة إسرائيل، حينها غرزوا الحدود والإشارات على المشارف الشرقية لمضارب القبيلة، فى ذلك اليوم أصدرت الحكومة مرسوماً:

"ياعرب عليكم ألا تتعدوا هذه الإشارات ناحية الشرق بعد اليوم أبداً، كان العرب قد استوعبوا قبل الحكومة هذا الخطر المناصب خلف الإشارات منذ أن اجتاح اليهود مراعيهم فى بئر السبع وصحراء النقب.."

باغتتنى بسؤالها المفاجئ:

- أنت من العريش ولا من سينا!!؟؟

"العريش تسلم وتعيش..!! يا وجعى من هذه البلدة وإليها وعليها..

- أخرجتنى من صمتى باستفسارها، لماذا لم تجب أنت من العريش أم من سينا!!؟؟

- أنا من سينا

- سينا قريبة من مرسى مطروح أليس كذلك!؟؟

- ولكنها أقرب إلى حدود إسرائيل!!

(إسرائيل قلتها وأنا أدرى بما ستجره علىَّ، ولكنى وجدته أهون من حالة الذهول التى أصابتنى منذ أن علقت ذراعها بذراعى إسرائيل، ستفتح لى مجال حديث، وستجبنى من حالة الصمت التى غلفتنى. كنت أعلم بأنها ستسألنى ذلك السؤال الذى اعتدته لفرط غبائه.. واعتدت ألف إجابة مختلفة عليه، دائماً أجيب حسب حالة الشخص الذى يسألنى إذا قلت له الحقيقة، وهى غالباً ليست ذات قيمة خارج حدود الصحراء، هذه الحقيقة التى هى أننى أكره إسرائيل - وليس اليهود - وكل النظم الاستبدادية فى العالم بقدر كرهى له..!!

سأكون فى نظره قبلياً لم أتشرب المدينية بعد، وإذا قلت له أننى أكره إسرائيل ثم سكت فسيجاملنى ويهز رأسه معلقاً. على شفتيه ابتسامة صفراء على طريقة أى إنسان شرب الذل كأساً وراء كأس، يوافق ظاهرياً فقط لأنه ليست له مصلحة فى المخالفة، أما فى داخليته فإننى كذاب كذباً مطلقاً بل وأحب اليهود

وأكره (..) ومستعد لبيع العروبة والإسلام - كأنه أكثر غيرة على العروبة والإسلام منى - على أول ناصية شارع لأول إسرائيلى يقابلنى، وإذا كان السائل من أولئك المتثاقفين الذين يقابلوننى على مقهى زهرة البستان فإننى أضع ساقًا على ساق وأشعل سيجارة فى طرف فمى قبل أن أجيبه: (أن إسرائيل ظاهرة مثلها مثل أى ظاهرة أخرى لها مساوئها ولها حسناتها وأصيغ له النظريات لتعزيز وجهة نظرى..) وأظل مستمرًا فى صياغة نظرياتى رغم عدم إيمانى بأى حرف منها أما إذا قلت للسائل: أنا أحب اليهود وأكره (...) فهذه عين الإجابة التى لايبحث عن غيرها رضعها مع حليب أمه ولقنتها له جداته وخالاته وعماته حين كان طفلاً يحبو فى حجورهن!!

رن فى أذنى سؤالها : "أنا عمرى فى حياتى لم أر مثلك، يبدو أنك غرقان فى كوم مشاكل لماذا لا تجيب انتوا بتحبوا إسرائيل!!؟؟

هذا عين السؤال الذى كنت أتوقعه هل تسمحى لى بأن أتدخل فى تغيير صيغة سؤالك.."

فكرت وجدت أنها لن تقوى على كل هذه الكلكعة ـ ولكن من الذى قال لك أننا تعاملنا معهم حتى نحبهم أو نكرههم.

ـ مش هم كانوا محتلين سينا ..؟؟

ـ لأ ده هم كانوا محتلين العريش..!!

ـ آه صحيح ده أنا كنت فاكراهم محتلين سينا والله..

حين اتكأنا على حافة الكوبرى.. وشبكت أصابعها بإصابعى سرت فى جسمى رجفة سريعة، أفقت منها على صورة (وضحاء) ترعى أغنامها بين قيزان سيناء..

الفضيحة

رغم أننى من سيناء بل ومن أبعد نقطة فيها، وبالتحديد من رفح ولست من مرسى مطروح ورغم أننى من العرب المشارقة ولست من العرب المغاربة - وفق توصيف إخواننا الليبيين - إلا أننى شعرت بالغثيان يجتاحنى حين قرأت فضيحة على حميدة فى الجرايد، هذا الغثيان الذى لم أحسه مطلقاً رغم أننى أقرأ عشرات الفضائح للفنانين والسياسيين فى نفس الجرايد كل يوم، بل أننى أحياناً أتعاطف مع أولئك الذين قد يقعون تحت سطوة الفضيحة تماماً مثلما أتعاطف مع كلينتون - على سبيل المثال - فى فضيحته مع مونيكا لوينسكى مبرراً لنفسى هذا التعاطف بأن أردد مقولة السيد المسيح: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر..

صحيح أننى لم أستلطف على حميدة منذ أول لحظة سمعت فيها صوته، وكان يضاعف من ألمى أنه يضع تحت إبطه شهادة الدكتوراه فى الموسيقى، بل وأستاذ فى علم الموسيقى فى واحدة من أكبر الأكاديميات

التى تدرس هذا العلم فى الشـرق الأوسط إلا أننى وحين تطاردنى البنات الحلوات فى جامعة القاهرة متسائلات : «هو على حميدة من عندكم..!!» تختلف إجاباتى، أحياناً أقول: نعم.. تحت إلحاح ذلك الشبق الذى ألمسه فى عيونهن، وأحيان أخرى تخرج من حلقى كلمة: لا كصدى لذلك الصوت الذى يخرج من داخلى لأننى أعتقد أن الرجل يستطيع أن يبدع فناً جيداً خاصة وهو يتكئ على موروث بكر وعلى دراسة أكاديمية متعمقة، كان بإمكانه أن يكون ولكنه أبى إلا أن يغرق فى التيار.

حين قابلته للمرة الأولى كان ذلك فى "العريش" تعرفت عليه وكنت أنوى أن أستضيفه فى مضارب قبيلتى، ولكننى بررت لنفسى عدم الإقدام على هذا الفعل بحجة السفر إلى القاهرة، وفى المرة الثانية كان ذلك فى محطة الرمل بالإسكندرية كان السفر إلى القاهرة هو مانعى أيضاً، وهذه المرة لم يكن السفر مانعى من استضافته فقط بل ومن السلام عليه أيضاً. كنت قد لململت أوراقى ودفاترى وبعد أن دفعت

الحساب لمحته بهيئته المعروفة ومعه صبيان صغيرا
السن وأنا خارج من الباب الـ CAFE SHOP وكدت أن
أسلم عليه، وكان بإمكانى أن أقدم له نفسى على أننى
شاعر وفنان وبدوى ومن سيناء، وكلها شهادات كانت
بالتأكيد ستجتاح وحشة البداية، و سنخرج أصدقاء
ولكنى حـمـدت الله أنى لم أفـعل، إذ ربما لو فـعلت
لوعدنى بأن يغنى لى واحداً من أشعارى تماماً مثلما
و عد ميكانيكى الأزاريطة بأن يجعل منه فناناً مشهوراً
{ تلعب الفلوس بين يديه لعب....}

الرسالة: صوت أم صدى

عولت السبب فى معرفتى المتأخرة بسفر عمى غيث إلى السعودية على العولمة والخصخصة والجات اللواتى هن نبت طبيعى لعصر السرعة الذى نعيش.. صحيح أننى حاولت ولوج هذا العصر من أوسع أبوابه ولكى أكون فى القلب منه ولست على الهامش قررت أن تكون أطروحتى للماچستير فى علوم المعلومات لنيل عضوية أكاديمية السادات، فالمعلومات والسادات هما قرنا هذا الحيوان الخرافى - أو هكذا اعتقدت - ألا إننى ظللت مثل تلميذ عاشق وفاشل يكتب قصيدة عشق لأنثاة فى الصفحة الأولى من كتاب المدرسة، وما إن يفتح الكتاب تحت دعوى المذاكرة حتى تطالعه قصيدة العشق فى الصفحة الأولى، فيظل يزيد ويعيد فى القصيدة إلى أن يغرق فى النوم.. مدعياً بأنه غداً سيبدأ المذاكرة الحقيقية، ويأتى الغد فى ذيل الغد - وريمة لم تفارق عادتها القديمة - أما التلميذ الفاشل التانى - الذى هو أنا فقد كتب فى أول صفحة من صفحات مرجع الكمبيوتر

قصيدة (لاتصالح) ويظل كل ليلة يكرر ما يفعله زميله، إلا أن يفاجأ بالامتحان على الأبواب، فينجح صاحبنا بصعوبة...

أما الآن وقد جاء سفر عمى غيث مفاجئاً ـ بالنسبة لى ـ أدركت كم أنا مأخوذ من القبيلة وبعيد عن أخبارها.. فعمى غيث الذى صار كبير قبيلتنا منذ ذلك التاريخ الذى قرر فيه عدم العودة للكويت بعد حرب الخليج الثانية وصار يسوق السبب وراء السبب لعدم عودته كأنه يقول:

(أخاف أغلط فى كليمة كذى ولا كذى تظهر مدى استيائى من الحصار المفروض على شعب العراق وياخذوها الجماعة فى الكويت على أننى واحد من "الضد"). فيرد جدى فراج:

والله يا غيث أخاف أن الكويتين يعرفوا أن بادية سيناء كانت كلها مع الحل العربى.." فأحشر نفسى فى الحديث مقاطعاً:

"وإن كان الجماعة فى الكويت مايدروا ـ يا جد فراج ـ الميركان يدروهم ويردوك من عالحدود يا عم

غيث" لكن أبى يخرج عن صمته لغيير دفة الحديث: " يا ولد يا حماد إيش علوم قرايتك"

أما الآن وقد سار سفر عمى غيث إلى السعودية حقيقة واقعة صحيح أنه لم يخبرنى خاصة وقد كان بإمكانه أن يفعل ـ لو أراد ـ رغم أننى فى الإسماعيلية وهو فى سيناء إلا أنه يمتلك جهاز تليفون وأنا كذلك.. إذاً لماذا لم يخبرنى بالتليفون وكعادتى تجاوزت التفاصيل.. ثم أن الصديق الذى أخبرنىَ بالموضوع لم ينس أن يطلب منى أن أكتب لعمى المسافر جوابات مبرراً طلبه بلهجة معبرة لازالت ترن فى أذنى: «ياه.. يا حماد يا خوى كم يحتاج المغترب إلى رسائل تأتيه من أهله وذويه وأنت كاتب يا حماد وكتاباتك لها نكهة خاصة.. وطعم لذيذ..!!» صحيح أننى أجد متعتى فى الكتابة ولكن كتابة الرسائل شئ آخر كتابة الرسائل تتطلب منك أن تكون طبيعياً وعادياً وأنا حين أتعاطى فعل الكتابة لا أكون طبيعياً ولا عادياً الرسالة دائماً تبدأ بديباجة محملة بالسؤال عن المرسولة له وتنتهى بديباجة أخرى تحمل أخبار القبيلة والأحوال فى الديار وما بين الديباجتين يطوى موضوع الرسالة

الرئيسى بعناية فائقة لذا فأنا لا أكتب رسائل لأحد وإن كتبت أكتب تلغراف والأصح أننى أقلعت عن كتابة الرسائل منذ أيام طفولتى والسبب هو صديقى وزميلى فى الصف الخامس الإبتدائية فى مدرسة أبو طويلة حسن العرجانى - سامحه الله - الذى كان أشطر منى فى كل المواد عدا مادتى الخط والإملاء وكان أشطر منى كذلك فى مغازلة البنات وكثيراً ما كان يملينى رسالة لواحدة منهن وكانت الرسالة دائماً تبدأ بحبيبتى (..) وتنتهى بـ حبيبك حسن العرجاني.. ولكن اللعين حين أقلع عن تكليفى بكتابة رسائله منذ ذلك اليوم الذى لم أحصل فيه على تسعة من عشرة لأننى كتبت كلمة الطيارة كما أملاها المدرس.. كتبتها الطائرة وحين راجعت المدرس - باكياً - صرخ بصوت عال سمعه كل طلاب الفصل: "عليك أن تكتب ما أمليه عليك لا ما تتخيل"

ومن يومها لم أقلع عن هذه العادة السيئة التى لازمتني.. فما زلت أكتب ما أتخيل لا ما مايملى علىّ..

الكاتب

عاش فى كنف أسرته الصامدة فى سيناء.. حيث أتم دراسته الإعدادية فى فترة الاحتلال الإسرائيلى لها.

- حاصل على دراسات عليا فى الكمبيوتر ونظم المعلومات - أكاديمية السادات.

- له رواية من ثلاث أجزاء تحت الطبع بعنوان: صحراء سينين (البدو - الصمود - الصدمة)

القصص

رقـــــم الإيـــــداع

٩٩/٢٣٤٦

I.S.B.N

977_ 5843_09_x